

تحقيق وبحث

لأستاذ عبد العظيم علي قناري

في التاريخ العربي جاهليه وإسلاميه كثير من القصص يرويه رواة ثقات ، لهم في النفوس منزلة منزلة عن الشك ، ولاخبارهم ثقة قلما يلحقها زيف ، وهم يروون تلك الأقاصيص على أنها حقائق ثابتة ، لا يرتفع إلى نقضها برهان ، لا يمتزج بها بهتان ، فإذا ما شكوا في صحتها لم يفعلوا ما يفعل المؤرخ الباحث ، فبنفوا زيفها ، وبنفوا جوهرها من زيفها ، بل حكوها بميتها وشينها متصوريين أنها مما يصح أن تتقبله الأقدام والعقول ، غافلين عن أنها من الأوهام والخيال ، ولو أنهم نزعوا عنها غشاءها الموه ، وكشفوا عن حقيقتها الخادع من الأسانيد ، لبقى للأدب كنزه ونقى عن التاريخ زيفه ، أما تركهم إياها مؤرجحة بين الشك واليقين ، والصدق والمين ، يقرها قارىء ويدحضها آخر ، فلبلة للأفكار ، واضطراب في التاريخ وكلاهما ينأى عنهما المؤرخ الثبت .

وأنا لذلك أجرو على أن أرسم كل ما جاء على هذا النحو بسمه القصة ، وأصفه بصفة الخرافة ، متحرزاً من اقفاء آثاره هؤلاء القاصين ، متحلاً من أنبائهم مهما كانت مراتبهم كريمة عالية في التاريخ الاسلامي ، ولن أعاب بأسانيدهم إن كانت الاخبار ذات أسانيد وإن تسامت مكاتبا السندية لمخافتها للروح العلي البحث ، ولبعدها عما يستلزمه البحث العقلي الحر ، الذي لا يتقيد بالنصوص التاريخية ؛ ولا يتخرج من الطعن في الأسانيد المتصل ، حينما ترتضيها الأفكار والنفوس ، ولا تخضع لها التواميس ، فالحكم المارضي الحكومة هو الوازع العقلي لا الخضوع السندي ، لا سيما وجل داتيك الاخبار بما لا يتصل بصميم الدين من قرب أو بعد ، ولا يحيط من مكانة الأدب العربي بين آداب الأمم الأخرى ، ربما كان وضع الاخبار في وضعها الحقيقي بوضعها بالأسطورة أو الأقصوصة نافيا عن الأدب العربي ما يصدقونه به من نقص القصة فيه ، ولو

ولو أن هذه الأحاديث التي نغنيها بتصل بالدين أو تمت إلى الأدب ما تأتمنا من بحثها وتمحيصها ولا تخرجنا من نقدها وتحقيقتها ، متى كان اعتمادها على غير القرآن الكريم أو الحديث الصحيح ، لأن هذين الاثرين لم يخط فيهما حرف إلا والعقل يريد والفكر الناقب يعاضده .

ويقيني أن هذه الأخبار التي سأعرض لها ، وأناقش نوعين منها أحدهما ديني تكاد تقرؤه في أصدق كتب السيرة خبرا ، وأوثقها نبأ ، وأقربها من حوادثه زما ، والآخر أدبي برويه غير كتاب من كتب الأدب المطولة المحققة وهي إن شكت في بعضه ؛ فإن شكها لم يدفعها إلى ترجيحه الوجهة الحقيقية . يقيني أنها وضعت لأحد غرضين لا مناص من كليهما أو أحدهما ؛ إما لإدخال الروعة في النفوس والرهبة في القلوب ، وتبعث الأكابر والاعظام لما يتصل به هذه الروايات وتستقبلها جمهرة القارئین مطمئنين إليها ، ويتناقلها حذاق المؤرخين غير معترضين عليها ، وإما ليسمر بها المتسامرون ، ويروى بها الراوون فيستق شأن صاحبها ويفشو أمره ، ويملا آفاق الأدب بذكره ويصبح وهو بآبته دهره وفريده عصره ؛ لما في تلك الأحاديث من غرابة بله استعجالة ، ولما يضافونه عليها من زخرف وصناعة يروعان النفس ويمتعان الحسن .



إلى القراء ما يرويه غير واحد من رجال السيرة عن الأخبار بيعة النبي قبل سطوع نجمه ، وبزوغ شمس بحقب طويلة ، وكأني بهؤلاء الرواة لم يقنعهم أن أخبر الله بنيرة الرسول في الإنجيل ، ولم يكفهم أن بشر به الله قبل على لسان عيسى ، ودون جلال هذه البشرى كل مقال ، فزعموا أن أحدا ملوك اليمن ربيعة ابن نصر رأى رؤيا هالته وفضح بها ، فلم يدع من كان زمانه وعائفيه وسخرته ومنجميه إلا من استكشفه سرها ، وأستوضحه أمرها فعجزوا عما انتدبهم له وأخبره أحدهم أنه إن أراد لرؤياه تأويلا فعليه بسطيح (١) أو شقي (٢) فعندهما

(١) سطيح كما يقول ابن هشام في سيرته هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن ، وسمى بسطيحا لأن مفاصله كانت لينة فبطوى كما يطوى الحصير .

(٢) شقي هو ابن صعب بن بشكر بن رهم . وسمى شقا لأنه كان شقا الإنسان فله يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة .

اليقين ، فيستقدمهما متعافين ، ولا يخبرهما برؤياه ، بل يستوحيهما نياها فينبئانه
 فيقول سطيج « رأيت حممة ^(١) خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة
 فأكلت منها كل ذات حممة » فقال الملك : ما أخطأت منها باسطيح فما أولها ؟
 فيقول « أحلف بما بين الحرمين ^(٢) من جنس لتبطن أرضكم الحبش ، يليه ما كن
 ما بين آيين إلى جرش ، فيقول الملك ؟ إن هذا لفائظ موجه ، فتي هو كائن ؟
 أو في زمانى هذا أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين من
 السنين قال : أفيدوم ذلك من ما كنهم أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع لبضع وسبعين
 من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هارين ، قال : ومن يل ذلك من قتلهم ؟
 وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم بن ذى وزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك
 أحدا منهم باليمن ، : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع . قال
 ومن يقطعه ؟ قال : بنى زكى يأتيه الوحي من قبل العلى ، قال : ومن هذا النبي ؟
 قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى
 آخر الدهر . قال : وهل للدهر آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون
 والآخرون يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ، قال : أحق ما تخبرنى ؟
 قال : نعم والشفق والفسق ، والفاق إذا اتسق إن ما بأتاك به لحق ^(٣) . ويقدم
 شق فيخبره الخبر ويجرى بينهما حديث . لا يخرج عن حديث صاحبه إلا فى بعض
 الألفاظ أما المعنى فمتفق متسق .

الحديث ظاهر الوضع والاختلاق : اضع الكذب والاختراع ، فأنى لذلك
 الكاهن (المزعوم) أن يعلم ما تكنه الضمائر وتبى به ويستكشف ما فى السرائر
 ويحدث عنه ؟ والله لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول قال تعالى
 « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول ، وإن يسلك من

(١) الحممة - قطعة النار - وظلمة يمتلئ من ناحية البحر ، وأرض تهمة الأرض المنصوبة إلى
 البحر كذلك . .

(٢) الحرة الأرض الصلبة وهى كثيرة بالجزيرة وآيين وجرش مكانان باليمن

(٣) الاسطورة منقول من كتاب سيرة ابن هشام مع تغيير قليل اقتضاه الرغبة فى إيجازها .

بين يديهم من خلفهم صدا^(١) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، والله زهير بن أبي سلبى إذ يقول نائضا تلك الأساطير :

وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكننى عن علم مافى غد عمى
ورسول الله قد بشر به ويعلم هذا التبشير الأحبار والرهبان ، وهذا الذى
يجمله الملك - فيسأل عنه أو يتجاهله ولا أظنه متجاهلا ، كالبعث والنشور
والحساب على النقيير والقطمير ، والثواب والعقاب والجنة والنار - كل أولئك
جاءت بهمرسل ، وليس أهل اليمن عنهم يبعيدون فقيهم اليهودية ، وفيهم النصرانية ونشبت
حروب بسبب الرغبة فى غلبة إحدى الديانتين على الأخرى ؛ وعلى ذلك فلدى
الملك علم ما عنه يسأل . ثم ما هذا القسم الذى لا نعرف نسجه ونظمه على هذا
النوال إلا فى القرآن الكريم ، إنه وحده لدليل الأسطورة ووحجة الاختلاق
وإن الدعوة المحمدية لنى غنى أى غنى عن هذا التبشير القائم على الأساطير .

٢

وهذا مثل ثان لا تجد ثقة من رواة السير إلا حدث به ورواه ، قالوا :
إن المؤتمرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أجمعوا أمرهم على الاجتماع
بدار الندوة^(٢) ليتساروا ويتشاوروا فيما يدفعون به الخطب الحازب الذى يوشك
أن يقضى على دين الآباء ، فعقدوا النية ووطدوا العزم على صده بكل وسيلة
مواتية مهما كلفهم من جليل خطير ، وفى الموعد الذى حددوه اعترضهم على
باب الندوة شيخ ذوهيئة ، وله جلال وهيئة ، يلبس كساء من الخز ، فسألوه : من
الشيخ ؟ فأجاب : نجدى تسامع بالامر الذى دبوا ، ويهمه ما يهمهم ، فأقبل
يسمع ويرى ، ولعله يكون له فى أمرهم الذى كرههم بعض رأى . فاطمأنوا
إليه ، وأدخلوه معهم ، وصار فيهم كآحدهم وقابوا وإياه الامر على شتى وجوهه

(١) الرصد الراصدون للشياطين يطردونهم عن الانبياء خشية أن يوسوسوا لهم ويكشفوا
ما أوحى به الله .

(٢) دار الندوة هى دار قصى بن كلاب وكانت قريش لا تقضى فى خطير من الامور الا فيها فاشبهها بأندية
الاحزاب الان

فكان أسد هم رأيا، وأبعد هم نظراً، وأصدقهم حكماً، يناقش آراءهم، حتى انتهى القول إلى أبي جهل، فأقر النجدي رأيه، وعززه بحجته، ودعا إلى تنفيذه؛ لنسلم لهم دياتهم، وتحفظ كرامتهم.

خبر واضح لا لبس فيه ولا غموض، ولكن الغريب فيه الدخيل عليه أن المؤرخين يدعون أن الشيخ النجدي إبليس تزيا بزي أبناء نجد، وتصور بصورتهم، ولا أدري من أين جاءهم هذا؟ وهو ما لم يرد به نص في كتاب الله ولا في كلام رسوله؛ نعم إن الرواية تنسب في بعض الكتب إلى حبر قريش وعالمها عبد الله بن العباس رضي الله عنه، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون ادعاء عليه لتستقيم الرواية، وتنهض قوية معززة، فمن أصدق من حبر قريش خبراً؟ أو لعله — إن صح أن الرواية له — استنباط منه؛ لأنه حين الهجرة كان غلاماً لا تتجاوز سنه بضع سنوات، ولا أدري لماذا لا يكون الرجل نجدياً حقيقة لا تصوراً؟ لا سيما أنه قد علل بعض المؤرخين من رواة حديث الهجرة تخير إبليس صورة النجدي بأن النجديين كانوا ينقمون على صاحب الدعوة الجديدة، على حين كان التهاميون هوامهم مع رسول الله، فما الغريب في أن يفد أحد ساداتهم يتحسس أخبار قريش؟ وما يكتنون لعدوهم المشترك، ويشاركونهم في حقهم على الرسول إيثارا لدين أسلافهم ولو أن المؤتمرين رأوا في عمل الرجل أو حديثه ما يبعث شكاً أو يثير ريباً ما قبلوه بينهم، خصوصاً متى عرفنا أن للاتظام في دار الندوة شروطاً، وليس بعيداً أن يعلم ما استقر عليه رأى صناديد قريش وهو في نجد، فأمر رسول الله قد ملأ شبه الجزيرة العربية، وجاوزه إلى البلاد المتاخمة والامم المجاورة؛ لأن الهجرة لم تتم إلا بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهجرة أصحابه إلى المدينة لا بد أن تحفز القرشيين إلى صدها حتى لا يستنصروهم عليهم، ثم يتألبوا جملة فيقهرهم على خلع أديان آبائهم، وهذا أبو بكر صديق الرسول ينتظر بفارغ صبر وبالغ أمل أمر الله رسوله بالهجرة، فما لا يتصور أن يمكن أولئك الرصد للرسول سبيل الهجرة ذلوا لينشر دينه في أنحاء العالم ثم يغزوهم آخر الأمر وفاصل القول أن أولئك المؤرخين الذين يتحرون حقيقة النجدي فيجدونه إبليس، لا يتفقون على عدد المؤتمرين ولا على أسمائهم، فلو أنهم عرفوا أشخاص المؤتمرين معرفة علم ويقين لحق لهم أن يكشفوا

الناحية المجهولة في تلك الاخبار ، ولكن مالا يساغ أن يتركوا ناحية يجب أن تكون معروفة لأن معرفتها ميسورة ، ويبحثوا ناحية مجهولة وتبينها عسير .

كل هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة تجعلني أوقن بأن المثل الأول أسطورة بحت ، وبأن الدخيل في المثل الثاني نجدي قبح أراد أن يحرز شرفا بمساهمته في التكيل بمن يريد أن يقلب عليهم أديانهم ، وأى شرف ذلك الذي يتغيه بزياده عن دين آباءه وأجداده ، ولا يغض من قيمة مقصده أن يتطفل على قوم لا تجمعهم بهم أسرة ، ولا تنتظمه وإياهم صلة ، فحسبه وحدة الغرض

وإخال الدافع إلى تلك الرواية التي قد يتصورها أحد المؤرخين - عن عقيدة - فيرونها فتناقلها الألسن ، فتقدها بطون الكتب - هو قصد الماشاكة بين تديرين ، والموازنة بين إرادتين . إرادة المشركين الخلاص من رسول الله وعلى رأسهم إبليس يدير أمرهم ، ويدبر كيدهم ؛ وإرادة الله الخلاص لنيه بما كادوا ، وإفساد ما دبروا بإملاء شيطانهم ، « وإذ يذكرك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ولكن الأمر لا يستأهل كل هذا ؛ فالقرشيون لا يفتشون يحاربون رسول الله سرا وجهرا ويقفون له كل مرصد ، ويقطعون عليه كل مفازة ، وهم يريدون الحل الفاصل ، فكان اجتماعهم ، وكان تشاورهم ، وكان أبو جهل صاحب رأيهم الذي به أخذوا ، ولو أن إبليس كان بينهم لدعاهم إلى أقوم الرأي دون تقلب أو تفكير ، ولكن الشأن كان غير ذلك .

والآن ألم بأن أن تبين - نحن رجال الدين واللغة - بعد هذا التحليل أن كتب السيرة جدرة بالتهذيب والصقل ، أو على اليسير الأدنى ، بالتعليق والتفحيح ؛ حتى تنفي اللبس عن كل ما يمت إلى هذا الدين القويم بسبب قريب أو بعيد .

وفي مقال آخر أعرض بعض أحاديث الأدب التي يحسن أن تُعَدَّ قصصا وهمية لاجقائق عليية .

عبد العظيم علي فناوي